من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم –آيات السمع والبصر أنموذجاً–

Of the scientific miracles in the Holy Qur'an - the verses of hearing and sight as a model -

د. محمد ضياء الدين خليل إبراهيم
أستاذ
كلية الإمام الأعظم الجامعة

Dr. Mohammad Diaa al-Deen Khalil Ibrahim
professor
The Great Imam University College

mohammad_80d@yahoo.com

الكلمات المفتاحية: الإعجاز– العلمي– القرآن الكريم– السمع– البصر
Keywords: Miracle- Scientific- Holy Quran- Hearing- Sight

الملخص

إنَّ من نعم الله تعالى الجليلة على الإنسان نعمة السمع والبصر اللتانِ نوَّه الله بهما في كتابه العظيم وامتنَّ بهما على عباده في كثير من الآيات وقد ورد ذكرهما في سياق متعدد ومختلف من التقديم والتأخير، فتارة يتقدم السمع كما هو في غالب الآيات أو يتأخر فيتقدم البصر، فضلاً عن إفراد لفظة(السمع)،وجمع لفظة(الأبصار)،فأردنا أن نقف عند هذه الأسرار، وأن نكشف عن وجه الإعجاز فيه، ولأجل الوصول إلى هذا الهدف قسم البحث على تمهيد وأربعة مباحث رئيسة، هي:

التهميد: فقد جاء بعنوان:((تعريف المعجزة لغة واصطلاحاً))، وقد تناولنا فيه تعريف المعجزة في اللغة والاصطلاح، وفضلا عن بيان المعجزة في القرآن الكريم. والمبحث الأول: فقد جاء بعنوان:((السمع والبصر(مفاهيم ودلالات)))،وقد تناولنا في هذا المبحث معنى السمع والبصر في اللغة والاصطلاح ومفهومها في القرآن الكريم. والمبحث الثاني: فقد جاء بعنوان:((الدلالات العلمية في تقديم السمع على البصر))،وقد تناولنا في هذا المبحث أهم الحكم التي انطوت على هذا النوع من التقديم اللفظي مع ربطها بمعطيات علم التشريح. والمبحث الثالث: فقد جاء بعنوان:((الدلالات العلمية في تقديم البصر على السمع))، وقد تناولنا في هذا المبحث الأسرار التي كانت وراء تقديم البصر على السمع في القرآن الكريم. والمبحث الرابع: فقد جاء بعنوان:((الإعجاز في إفراد السمع وجمع الأبصار))، وقد تناولنا في هذا المبحث الأسرار العلمية والحكم الربانية التي كانت وراء إفراد لفظة(السمع)، وجمع لفظة (الأبصار).

Abstract

One of the great blessings of God Almighty upon man is the blessing of hearing and sight, which God mentioned in His Great Book and bestowed upon His servants with them in many verses, and they were mentioned in a multiple and different context of precedence and delay. In addition to singling out the word (hearing) and plural of the word (seeing), we wanted to stop at these secrets, and to reveal the aspect of miraculousness in it, and in order to reach this goal, the research was divided into a preface and four main investigations, which are:

Al-Tahmid: It came under the title: ((Defining a miracle in language and idiomatically)), in which we dealt with the definition of a miracle in language and terminology, as well as an explanation of the miracle in the Holy Qur'an.

The first topic: It came under the title: ((Hearing and sight (concepts and semantics))).

And the second topic: It came under the title: ((Scientific indications in the presentation of hearing over sight)), and we have dealt in this topic the most important rulings that involved this type of verbal presentation with linking it to the data of anatomy.

And the third topic: It came under the title: ((Scientific indications in the preference of sight over hearing)), and we have dealt with in this topic the secrets that were behind the preference of sight over hearing in the Holy Quran. And the fourth topic: It came under the title: ((the miraculousness in singling out hearing and collecting sight)), and we have dealt with in this topic the scientific secrets and divine wisdom that were behind the singling out of the word (hearing), and the plural of the word (vision).

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، وأشرف الصلاة وأتم التسليم على سيد الأولين والآخرين، سيدنا ومولانا محمد المصطفى الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين. أمَّا بعد: فقد كان للقرآن الكريم ولايزال مكان الصدارة في دراسات العلماء والباحثين؛ لأنَّه وحي السماء، ومصدر التشريع، والقانون المنظم للسلوك، والمرشد إلى معالي الأمور.

وقد سيطر هذا الكتاب المعجز على الملكات الأدبية، واجتذب اهتمامها، إذ رأت فيه أبلغ الأساليب، وأروع الخصائص الأدبية، فعكف على العلماء على دراسته، والبحث في أسراره، وفي مواطن إعجازه، فاهتموا بألفاظه ومعانيه، وألَّفوا في غريبه خاصة، وفي غريب اللغة عامة، ودرسوا تراكيب الألفاظ لتؤدي جملة ذات معنى، فظهر علم النحو، وبحثوا في البناء الداخلي للفظ ذاته، فقدموا علم الصرف، ثم درسوا أنماط التعبير الفني في القرآن الكريم، فكان علم البلاغة من بيان ومعان وبديع، وكان الأسلوب القرآني عمدة الأحكام النقدية في نقد الشعر والنثر.

وهكذا استمدت هذه العلوم جذورها من القرآن الكريم، واستهدفت جميعها غاية أصيلة هي خدمة هذا الكتاب المجيد، حتى يحسن فهمه، واستجلاء مواطن الجمال وأسرار البلاغة في بيانه المعجز.

إنَّ الحديث عن إعجاز القرآن الكريم لذيذ، وهذه اللذة لايعرفها إلَّا من ذاق طعمها، ولا يستلذ بطعمها إلَّا الذي أوتي حاسة ذوق مرهفة ومن زود بفطنة ونفس لم يشبها هوى عقيدة ضالة أو فكر تائه في ظلمات الجهل والتعصب.

هذا الكتاب الذي أرغم الفصحاء بعلو هامه، وحيَّر البلغاء بسمو نظمه، كيف لا وقد شدت النجوم أزرها حين نزوله، ورمت الشياطين بشهبها وقت تثبيته في قلب الرسول(ﷺ)، وأبت الجبال من حمله وأشفقت الأرض والسموات من خشيته، قال تعالى:﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (الأحزاب: ٧٢)،وقال تعالى:﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الحشر: ٢١)،هذا الكتاب ما إن طرق آذان الجن حتى قالوا:﴿ قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾ (الجن: ١ – ٢)،كيف لا، وهو الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

ولقد كثرت هذه الدراسات وتنوعت الأبحاث حول تلك المعجزة الخالدة، وستظل تتكاثر وتتعدد حتى تقوم الساعة، فمع إشراق كل يوم جديد يكتشف فيه الباحثون دوماً جوانب جديدة

لم يهتدوا إليها من قبل فيعكفون على دراستها يدفعهم إيمان عميق، وعقيدة واسعة بأنَّ دراساتهم مهما تعمقت وتنوعت فستظل قاصرةً عن إدراك كل ما يحمله هذا القرآن من كنوز نفيسة وآيات بينات من المعاني والمعارف، وستبقى هذه الدراسات تكتشف فيه الجديد والجديد حتى يرث الله الأرض ومَنْ عليها.

وإنّ نعم الله سبحانه وتعالى على عباده كثيرة لاتعد ولا تحصى مصداقاً لقوله جلَّ جلاله:﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾(إبراهيم: ٣٤).

ومن نعم الله تعالى الجليلة على الإنسان نعمة السمع والبصر اللتانِ نوَّه الله بهما في كتابه العظيم وامتنَّ بهما على عباده في كثير من الآيات وقد ورد ذكرهما في سياق متعدد ومختلف من التقديم والتأخير، فتارة يتقدم السمع كما هو في غالب الآيات أو يتأخر فيتقدم البصر، فضلاً عن إفراد لفظة(السمع)،وجمع لفظة(الأبصار)،فأردنا أن نقف عند هذه الأسرار، وأن نكشف عن وجه الإعجاز فيه، ولأجل الوصول إلى هذا الهدف قسم البحث على تمهيد وأربعة مباحث رئيسة، هي:

التهميد: فقد جاء بعنوان:((تعريف المعجزة لغة واصطلاحاً))، وقد تناولنا فيه تعريف المعجزة في اللغة والاصطلاح، وفضلا عن بيان المعجزة في القرآن الكريم.

والمبحث الأول: فقد جاء بعنوان:((السمع والبصر(مفاهيم ودلالات)))،وقد تناولنا في هذا المبحث معنى السمع والبصر في اللغة والاصطلاح ومفهومها في القرآن الكريم.

والمبحث الثاني: فقد جاء بعنوان:((الدلالات العلمية في تقديم السمع على البصر))،وقد تناولنا في هذا المبحث أهم الحكم التي انطوت على هذا النوع من التقديم اللفظي مع ربطها بمعطيات علم التشريح.

والمبحث الثالث: فقد جاء بعنوان:((الدلالات العلمية في تقديم البصر على السمع))،وقد تناولنا في هذا المبحث الأسرار التي كانت وراء تقديم البصر على السمع في القرآن الكريم.

والمبحث الرابع: فقد جاء بعنوان:((الإعجاز في إفراد السمع وجمع الأبصار))، وقد تناولنا في هذا المبحث الأسرار العلمية والحكم الربانية التي كانت وراء إفراد لفظة(السمع)، وجمع لفظة (الأبصار).

ونرجو أن تكون هذه الدراسة قد أعطت الموضوع حقه وأن يفيد منه الباحثون مثلما أفاد البحث من غيره.

التمهيد

تعريف المعجزة لغة واصطلاحاً

المعجزة في اللغة: تعني إعجاز الخصم عند التحدي، وهي مشتقة من الفعل الثلاثي "عجز" ومصدره العجز، وهو ضد القدرة وأصبح اسماً للقصور عن فعل الشيء، فيقال عجز فلان عن الأمر، إذا حاوله ولم يستطع المحاولة.

والعجز هو التأخر عن الشيء، وعَجْزُ الأمر أي مؤخره، ونعني القصور وعدم القدرة على فعل الشيء، قال تعالى:﴿ **قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ** ﴾ (المائدة: ٣١).

وأُطلق لفظ العجوز على المرأة الكبيرة في العمر وذلك لعجزها عن القيام بكثير من الأعمال التي كانت تقوم بها في شبابها[١]، قال تعالى: ﴿ **قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً** ﴾(هود: ٧٢).

وجاء في لسان العرب عدة معانٍ لكلمة العجز وكلها تدور في محور واحد وهي كما كالآتي:

١ـ **العجز:** يعني نقيض القدرة والحزم فيقال عجز عن الأمر يعجز عجزاً فهو غير قادر على فعله، فهو عاجز عن القيام بالأمر واسم الفاعل عاجز.

٢ـ **العجز:** تعني أيضاً الضعف فحينما تقول: عجزت عن كذا أي ضعفت ويُصدّق ذلك قول عمر رضي الله عنه:(لا تُلِثُّوا بدار معجزة)،أي: لا تقيموا ببلدة تعجزون فيها عن الاكتساب والعيش لشدة ضعفها الاقتصادي.

٣ـ **العجز:** يأتي بمعنى التثبيط، تقول عجز الرجل غيره، وأعجز الرجل غيره، أي: صار الخصم ضعيفاً عاجزاً عن متابعته[٢].

والإعجاز هو الفوت والسبق فعندما تقول: أعجزني فلان أي سبقني وفاتني وجعلني عاجزاً عن طلبه.

والإعجاز في الكلام، هو أن يبلغ الكلام مستوى من الفصاحة والبيان لا يرقى إليه كلام آخر.

وإعجاز النص القرآني: يعني ارتقاء نص الخطاب القرآني في البلاغة والفصاحة وأمور الإعجاز الأخرى حتى تخرج عن طوق البشر، فيعجزوا عن معارضته ومجاراته أو الإتيان بمثله كنص مرصوف من كلمات معدودة تحتوي على درٍر من الفوائد البيانية[٣].

تعريف المعجزة اصطلاحاً: عرفها العلماء بعدة تعريفات منها: أنَّ المعجزة((هي أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي

---

(١) تفسير مفردات: ٥٦٧.

(٢) لسان العرب: ٦٩١/٤.

(٣) الإعجاز في نص الخطاب القرآني: ٤.

سالم عن المعارضة))[١]،وقال الدكتور صلاح عبدالفتاح الخالدي المعجزة:((هي الأمر الخارق للعادة، سالم عن المعارضة يجريه الله على يدي النبي تصديقاً له في دعوة النبوة))[٢]،وأجمع هذه التعريفات الآتي:((هي أمر خارق للعادة والمألوف من الفعل أو الترك يجريه الله على يد نبي أو رسول على وفق مراده؛ ليبرهن على صدقه مقروناً بالتحدي مع عدم المعارضة وذلك في زمن التكليف))[٣].من خلال هذا التعريف الجامع نستطيع استنتاج الشروط التي ينبغي توافرها في المعجزة وهي كما يأتي:

١- أن تكون المعجزة من فعل الله سبحانه وتعالى وليس للنبي أو الرسول يدٌ في فعلها سوى أنها جرت على يديه، وإنما دور النبي الدعاء بالتأييد والتثبيت؛ لأن الذي يخرق النواميس الكونية ليس البشر وإنما الله سبحانه وتعالى، والدليل على هذا الشرط، حادثة الإسراء والمعراج، قال تعالى: ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى** ﴾(الإسراء: ١) لم يقل بنبيه أو رسوله ليقرر في وسط المعجزة أن محمداً عبد وبشر وليس في مقدوره التغيير وإنما التغيير بيد الله سبحانه وهو على كل شيء قدير.

٢- أن تكون المعجزة ناقضة للعادة والمألوف: بمعنى أن تكون خرقاً لسنن يراها الناس ويلمسونها، كأن تُقلب العصا إلى ثعبان أو يشق الحجر ويخرج من وسطه ناقة أو يضرب البحر بعصاه فيصبح طريقاً يبساً أو يضرب الحجر فتنفجر منه اثنتا عشرة عيناً، أو ينبع الماء من بين أصابعه، أو يُطعم الخلق الكثير من الطعام القليل كما حدث يوم الخندق وكذهاب خاصية الإحراق من النار وتصبح برداً وسلاماً على إبراهيم عليه السلام عندما أُلقي فيها، وغيرها كثير حدث على يد الأنبياء المرسلين.

٣- أن يعجز المتحدى بها الإتيان بمثلها: بمعنى أنه لا يستطيع أحد أن يأتي بمثلها، وبهذا الشرط يخرج ما يحدث عن طريق السحر والشعوذة والكهانة لأنَّ ذلك ليس من قبيل المعجزة وإنما من قبيل التخييل وخفة اليد والظن والتخمين.

٤- أن تكون المعجزة مطابقة لمن ظهرت على يديه ومصدقة له، وأما إن شهدت بتكذيبه أو تناقضت مع دعوته فليست معجزة ، وإنما تكون فتنة واستدراجاً.

٥- أن تكون في زمن التكليف: بمعنى أن تكون المعجزة في الحياة الدنيا وقبل ظهور العلامات الكبرى ليوم القيامة، وذلك ليتم التحدي بها والعجز عن معارضتها من الناس، وبهذا

---

(١) مباحث في علوم القرآن: ٢٥٩.

(٢) البيان في إعجاز القرآن: ٢٣.

(٣) الإعجاز في نص الخطاب القرآني: ٤.

الشرط تخرج العلامات الكبرى ليوم القيامة ولا تُعتبر معجزات؛ لأنها ليست للتحدي، مثل طلوع الشمس من مغربها وكنسف الجبال وتسجير البحار وانفطار السماء...الخ[1].

القدر المعجز من القرآن: لقد نزل القرآن الكريم بلغة العرب فتحداهم جميعاً ، وكانوا أصحاب البلاغة وفرسان البيان وتميزوا بسلامة السليقة وسرعة البديهة إلا أنهم وقفوا أمام التحدي عاجزين حائرين لا يستطيعون مجاراة الأسلوب في نص الخطاب القرآني، فتحداهم في بداية الأمر بقوله تعالى: ﴿ **فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ** ﴾ (الطور:٣٤).

ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سور فقال تعالى: ﴿ **أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** ﴾(هود:١٣).

ولما عجزوا عن الإتيان بعشر سور تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة، قال تعالى: ﴿ **أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ (يونس:٣٨).

وفي آخر مرحلة من مراحل التحدي طلب منهم أن يأتوا بسورة تشبه القرآن فقال سبحانه وتعالى:﴿ **وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ** ﴾ (البقرة: ٢٣).

وقال القاضي أبو بكر:((ذهب عامةُ أصحابنا، إلى أن أقلّ ما يُعجَز عنه من القرآن السورة قصيرة كانت أو طويلة، أو ما كان بقدرها، فإذا كانت الآية بقدر حروف سورة، وإن كانت كسورة الكوثر فذلك معجز))[2].

ويؤكد هذا قوله تعالى:﴿ **فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ** ﴾(الطور:٣٤)؛لأن الحديث يحصل في أقل الكلمات كسورة قصيرة وهو يؤكد ما ذهبنا إليه ومع ذلك عجزوا، قال تعالى: ﴿ **فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ** ﴾ (البقرة: ٢٤)وهذا قمة في تعجيزهم وإفحامهم مع أنهم أهل اللغة.

ثم أمرهم بأن يستعينوا بشركائهم من الجن، حيث إن العرب كانوا قديماً يستعينوا بالجن في معرفة التاريخ وكتابة المعلقات وحفظ الأنساب، ومع ذلك أُسقط في أيديهم، فوقفوا حائرين أمام الأسلوب القرآني، قال تعالى:﴿ **قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً** ﴾ (الإسراء:٨٨).

سر التدرج في التحدي: لقد وقع التحدي في القرآن الكريم من الكثير إلى أي شيءٍ من القرآن فطلب منهم في بداية الأمر أن يأتوا بمثل القرآن الكريم ولما عجزوا طالبهم بعشر سور مثل سور القرآن في البيان والفصاحة، ثم وقع التحدي أخيراً بأن يأتوا بمثل سورة واحدة، قال

(١) إعجاز القرآن: ٢١،٢٢.

(٢) البرهان في علوم القرآن: ١١٦/٢.

تعالى:﴿ **وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾ (البقرة:٢٣).

ويوضح الدكتور محمد عبدالله دراز عن سر هذا التدرج في التحدي فيقول: انظر كيف تدرج القرآن معهم من طلب المماثل إلى طلب شيء مما يماثل فكأنَّه يقول لهم لا أكلفكم بالمماثلة، بل حسبكم أن تأتوا بشيء فيه جنس المماثلة، وهذا أقصى ما يكون من التنازل، ولذلك كان آخر صيغ التحدي نزولاً، ولهذا لم يأتِ التحدي بلفظ من مثله إلَّا في الآيات المدنية، بينما مراتب التحدي بالمثل نزلت في السور المكية(١).

والظاهر أنَّ الإعجاز في النص القرآني لا يتعلق بقدر معين من القرآن، ففي كل آياته وسوره معجزة، وكذلك يتضح الإعجاز البياني في أساليب التعبير التي انفرد بها القرآن الكريم، كما أنَّه يتمثل في وجود الفاصلة القرآنية، التي تعني مناسبة وتناسق ختم الآيات مع موضوعاتها، قال ابن عطية:((كتاب الله لو نزعت منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد))(٢).

(١) النبأ العظيم: ٨٤.

(٢) المحرر الوجيز: ٥٢/١.

المبحث الأول

(السمع والبصر) مفاهيم ودلالات

أولاً: السمع في اللغة والاصطلاح:

السمع لغةً: حس الأذن، مصدر سَمَعَ وسَمْعَاً وسَمَاعَاً، تقول: سَمَّعَهُ الخبر وأسمعه إيَّاه ورجل سمّاع: إذا كان كثير الاستماع لِمَا يقال وينطق به، وفي التنزيل:﴿ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ ﴾ (المائدة: ٤١)، وسمع به أسمعه القبيح، وتسمّع إليه وأسمع: أصغى، وفي التنزيل:﴿ لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴾(الصافات: ٨)، يقال: تسمعت إليه وسمعت إليه وسمعت له، كلمة بمعنى ،قال تعالى:﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ (فصلت: ٢٦)[١].

أمَّا السمع في الاصطلاح فهو((قوة في الأذن به يدرك الأصوات))[٢]،وعبر القرآن الكريم بالسمع عن الاذن، نحو: ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾(البقرة: ٧)، وتارة عن فعله كالسماع، نحو:﴿ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾(الشعراء: ٢١٢)،وتارة عن الفهم وتارة عن الطاعة تقول: اسمع ما أقول لك، ولم تسمع ما قلته لك، أي: لم تفهم، وقوله:﴿ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾(البقرة: ٩٣)، أي: فهمنا ولم نأتمر لك.

قال ابن القيم عند كلامه على سمع الأذن والقلب:((فإنَّ الكلام له لفظ ومعنى وله نسبة إلى الأذن والقلب وتعلق بهما، فسماع لفظه حظ الأذن وسماع حقيقة معناه ومقصده حظ القلب، وأثبت لهم سماع الألفاظ الذي هو حظ الأذن في قوله تعالى:﴿ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ۝٣ ﴾ (الأنبياء: ٢– ٣)،وهذا السماع لا يفيد السامع إلَّا قيام الحجة عليه أو تمكنه منها، وأمَّا مقصود السمع وثمرته والمطلوب منه فلا يحصل مع لهو القلب وغفلته وإعراضه))[٣]،ومعنى ذلك أنّ الذي يسمع أمر الله تعالى فلا يلتزم به، أو يسمع نهيه دون أن ينتهي عمَّا نهى فكأنّه في الحقيقة لم يسمع؛ لأنّ ثمرة الكلام هي الانتفاع بالمسموع والعمل به.

---

(١) ينظر: لسان العرب: ١٩٣/٨ مادة (سمع).

(٢) المفردات في غريب القرآن: ٤٢٥.

(٣) التفسير القيم: ٤٣ – ٤٤.

ثانياً: معنى البصر لغة واصطلاحاً:

البصر لغةً: حس العين، بصر به بصراً وبصارة، وأبصره وتبصره: نظر إليه هل يبصره، وأبصرتُ الشيء: رأيته، والبصر: العلم بالشيء، يقال: فلان بصير نحو قوله تعالى:﴿ وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ﴾(القمر: ٥٠)،وقوله تعالى:﴿ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾(الأحزاب: ١٠)،ويقال: للقوة التي في الجارحة بصر[١].

ويقال لقوة القلب المدركة بصيرة وبصر، نحو قوله تعالى:﴿ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ﴾(ق: ٢٢)،وجمع البصر: أبصار، وجمع البصيرة: بصائر[٢]. أمّا البصر اصطلاحاً: فهو((النور الذي تدرك به الجارحة المبصرات))[٣].

ثالثاً: مفهوم السمع والبصر في القرآن الكريم:

ذكرت كلمة السمع ومشتقاتها وتصاريفها في القرآن الكريم(١٨٥)مرة[٤]،بينما وردت فيه كلمة البصر ومشتقاتها وتصاريفها(١٤٨)مرة فقط[٥].

وحيثما وردت كلمة السمع في القرآن الكريم عنت دائماً سماع الكلام والأصوات وادراك ما تنقله من معلومات، بينما لم تعن كلمة البصر رؤية الضوء والأجسام والصور بالعينين إلَّا في (٨٨) حالة فقط، إذ أنَّها دلت في المواضع الأخرى على التبصر العقلي والفكري بظواهر الكون والحياة، أو بما يتلقاه المرء ويسمعه من آيات وأقوال[٦].

وقد ترافقت كلمتا السمع والبصر في ثماني وثلاثين آية كريمة[٧]،مثلما في قوله تعالى:﴿ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾(يونس: ٣١) ،وقوله تعالى:﴿ أُوْلَٰٓئِكَ

---

(١) ينظر: لسان العرب: ٧٣/٤ مادة (بصر).

(٢) ينظر: المفردات في غريب القرآن: ١٢٧.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ٦٩.

(٤) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ٤٤٠- ٤٤٣، والدليل المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ٤٨٢-٤٨٤.

(٥) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ١٤٨-١٥٠، والدليل المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ٢٧٧- ٢٧٨.

(٦) موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم: ١٧٤.

(٧) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ٤٤٠ - ٤٤٣.

لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴾(هود: ٢٠)،وقوله تعالى:﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (النحل: ٧٨)، وقوله تعالى:﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ (المؤمنون: ٧٨).

وقد وردت كلمة(الصم)متوافقة مع كلمة(العمي) في ثمان آيات سبقت في معظمها كلمة (الصمم) كلمة (العمى)[١]،كما في قوله تعالى:﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾(البقرة: ١٨)، وقوله تعالى:﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾(البقرة: ١٧١)،وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴾(الفرقان: ٧٣)، وقوله تعالى:﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴾ (محمد: ٢٣).

ومن خلال استقراء النصوص القرآنية السابقة نرى أنَّ كلمة(السمع)،قد سبقت كلمة(البصر) في معظمها، فهل لهذا التقديم من سر؟. إنَّ الإجابة عن هذا السؤال وللوهلة الأولى من خلال المعلومات التي نمتلكها عن هذا السؤال قد تكون صعبة وعسيرة، فمن المعلوم فيزيولوجياً وتشريحاً أنَّ العصب البصري الواحد يحتوي على أكثر من مليون ليف عصبي، بينما لا يحتوي العصب السمعي إلَّا على ثلاثين ألف ليف فقط، كما أنَّ من المعلوم فيزيولوجياً أنَّ ثلث عدد الأعصاب الحسية في الجسم هي أعصاب بصرية، ولا يرد إلى الجسم من مجموع المعلومات الحسية عن طريق الجهاز السمعي اكثر من(١٢%)بينما يرد إلى الجسم عن طريق الجهاز البصري حوالي(٧٠%) من مجموع المعلومات الحسية[٢].فإذا كانت المسألة بهذا الشكل فلماذا هذا التقديم إذاً للسمع على البصر في معظم الآيات؟.

وهذا ما سنحاول أن نجيب عنه في هذا البحث من خلال المباحث الآتية بعرض المعطيات العلمية الحديثة حول السمع والبصر لنجد الإجابة ولنقف على سر الإعجاز في القرآن الكريم حول هذا النوع من التقديم.

ومن خلال تتبع نصوص آيات القرآن الكريم التي وردت فيها كلمتا السمع والبصر أو العين والأذن، نرى أنَّ القرآن الكريم يفرق بينهما في المعنى والاستعمال، فالآيات التي ذكرت فيها

(١) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: ٥٠٩.

(٢) ينظر: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم: ١٧٤-١٧٥.

الأعضاء ذكرت معها تعبيرات تناسبها ومن جنسها من دون ذكر وظائفها(السمعية والبصرية)، ويمكن أن نلاحظ ذلك من خلال تتبع المعاني والآيات الآتية:

١ـ العين، قال تعالى:﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ ﴾ (المائدة: ٨٣)،وقال تعالى:﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنۡهُمۡ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبۡيَضَّتۡ عَيۡنَاهُ مِنَ ٱلۡحُزۡنِ فَهُوَ كَظِيمٞ ﴾(يوسف: ٨٤)،وقوله تعالى:﴿ تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ ﴾(الأحزاب: ١٩).

٢ـ الأذن، قال تعالى:﴿ فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا ﴾(الكهف: ١١)،وقال تعالى:﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (لقمان: ٧).

والآيات التي ذكر فيها المصدر أو القوة المدركة(السمع والبصر)ذكر فيها معنى الإدراك والتفهم والتدبر ، أي: ذكر فيها

معنى العقل، ومن الأمثلة على ذلك، قوله تعالى:﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۙ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾(النحل: ٧٨)،وقوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴾ (الإسراء: ٣٦)، وقوله تعالى:﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴾ (الروم: ٢٣).

وهناك آيات جمعت بين الأعضاء والوظيفة ، قال تعالى:﴿ وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ ﴾(الأعراف: ١٧٩)،وقوله تعالى:﴿ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۚ ﴾(الأعراف: ١٩٥)،ويمكن أن نستنتج من خلال ما تقدم ذكره ما يأتي:

٣ـ يأتي السمع والبصر في معان حول الفكر والفهم والتدبر، بينما تأتي العين والأذن مراداً بها الأعضاء الناقلة للمؤثرات الحسية.

٤ـ وعندما يأتي السمع مع البصر في آية واحدة فإنّ السمع يتقدم البصر في معظم القرآن الكريم.

٥ـ وعندما تأتي العين مع الأذن في آية واحدة، فإنّ العين تتقدم الأذن في معظم القرآن الكريم.

وأمَّا البصيرة فتطلق على عدة معانٍ، فتطلق على عقيدة القلب، وعلى اليقين في العلم بالشيء وعلى الفظة والحجة[١]. وسيأتي في المباحث القادمة معالجات وتفصيلات لهذه النقاط.

(١) تفسير المنار: ٦٥/٧.

المبحث الثاني

الدلالات العلمية في تقديم السمع على البصر

وقف العلماء قديماً وحديثاً عند هذا التقديم لإدراكهم أنَّه ترتيب مقصود ويتضمن الكثير من الحكم والأسرار لهذا الترتيب الذي جاء هكذا في معظم الآيات بل المتتبع يجد أنّ السمع تقدم على البصر في جميع الآيات عدا ستٍّ منها.

ولم يأتِ هذا التقديم عبثاً كما ذكرنا، وإنَّما يأتي لعدة اعتبارات ودلالات مهمة، وقد وقف العلماء المتقدمون على مجموعة من الحكم وراء هذا التقديم، فلا ضير في أن نعرض لها ثم بعد ذلك تقف على معطيات العلم الحديث كي نوازن بينهما، وهذه الحكم هي:

أولا: إنَّ السمع أهم من البصر في عملية الإدراك الحسي والتعلم وتحصيل العلوم فمن الممكن للإنسان إذا فقد بصره أن يتعلم ويتحصل العلوم ولكنه إذا فقد سمعه تعذر عليه ذلك ومِمَّا يدل على ذلك أنَّ القرآن الكريم ذكر السمع وحده مع العقل للدلالة على العلاقة الوطيدة بينهما كما في قوله تعالى:﴿ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ (الملك: ١٠).

والقران الكريم قد ذكر في كثير من آياته السمع بمعنى الفهم والتدبر ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ (النور: ٥١)،ومن جهة أخرى يلاحظ أنَّ القرآن الكريم في تقديمه للسمع، له إشارة ودلالة على أهمية السمع وأثره في حياة الإنسان فعن طريق السمع نستطيع في الوقت الحاضر أن نقف على أخبار العالم من خلال وسائل الاتصال الحديثة وفي هذا المعنى قال الإمام ابن القيم:((فإنَّ المدرك بالسمع أعم وأشمل، والمدرك بالبصر أتمُّ وأكملُ فالسمع له العموم والشمول والبصر له الظهور والتمام وكمال الإدراك))[١]،ولأنَّه بالسمع تصل نتائج عقول بعضهم إلى بعض، فالسمع كان سبباً لاستكمال العقل بالمعارف والبصر لا يوقفك إلَّا على المحسوسات.

وفضلاً عن ذلك فإنَّ السمع أهم في إقامته الحجة على الخلق، إذ أنَّ البصر لايشاهد المعجزة إلَّا زمان وقوعها ومن شاهدها فحسب، أمَّا السمع فطريق أعم واشمل وأطول في مداه وزمانه، وذلك انبثاقاً من طبيعة الدين نفسه وهو العموم والخلود، والسمع أهم في توصيل نتائج العقول الى الآخرين، قال الفخر الرازي:((فالسمع كأنَّه سبب لاستكمال العقل بالمعارف، والبصر لا يوقفك إلَّا على المحسوسات))[٢].

---

(١) مفتاح السعادة: ٣٥/١.

(٢) مفاتيح الغيب: ١٨٦/١.

ثانياً: إنّ حاسة السمع تؤدي وظيفتها باستمرار من دون توقف بينما حاسة البصر قد تتوقف عن أداء وظيفتها إذا أغمض الإنسان عينيه وإذا نام، وكذلك الصوت الشديد يوقظ الإنسان من نومه، وهذا ما أشار إليه القران الكريم في قصة أصحاب الكهف، إذ ضرب على آذانهم في الكهف سنين عدداً ثم بعثهم من مرقدهم، قال تعالى:﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا ﴿١٢﴾ ﴾(الكهف: ١١ – ١٢).

قال الزجاج:((أي: منعناهم عن أن يسمعوا؛ لأنَّ النائم إذا سمع انتبه))[١]،أمَّا تخصيص الآذان بالذكر فلأنّها الجارحة التي منها عظم فساد النوم وقلَّما ينقطع نوم نائم إلَّا من جهة آذانه ولا يستحكم نوم إلَّا من تعطل السمع[٢]،يقول الإمام الطبري معلقاً على الآية الكريمة: يعني جلّ ثناؤه بقوله:(فضربنا على آذانهم في الكهف)، أي: بالنوم، أي: ألقينا عليهم النوم[٣].

ثالثاً: إنَّ حاسة السمع تسمع في كل الأوقات سواء في الضوء أو في الظلام بينما حاسة البصر لا ترى إلَّا في الضوء قال تعالى:﴿ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ ﴾(البقرة:٢٠).

فالسمع يدرك المسموعات من الجهات الست وفي النور والظلمة بينما لا تدرك القوة الباصرة إلَّا من جهة المقابلة وبواسطة شعاع أو ضياء، فتحصيل السمع للمعرفة أكثر من تحصيل البصر وما تم نفعه زاد فضله وإلى هذا المعنى أشار الإمام الآلوسي بقوله:((ولعلَّ سبب تقدم السمع على البصر مشاركته للقلب في التعرف من الجهات الست – مثله – دون البصر))[٤].

وبالرجوع إلى معطيات العلم الحديث والحقائق العلمية التي عرفت حديثاً في علم الأجنة، والتشريح الفيسيولوجي، والطب يمكننا من خلالها أن نقف على أسرار هذا التقديم والتفضيل وسر الإعجاز القرآني في ذلك، ويمكن أن نعرض لهذه الحقائق العلمية وفق ما يأتي[٥]:

١ــ التطور الجنيني للأذن والعين: تتطور آلتا حسي السمع والبصر في وقت متزامن تقريباً في الحياة الجنينية الأولى، إذ تظهر الصفيحة السمعية في أوائل الأسبوع الرابع (optic

(١) معاني القرآن وإعرابه: ٣/٢٢١.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ٦/٣٠٠.

(٣) جامع البيان: ١٥/٢٠٥.

(٤) روح المعاني: ١/١٨٩.

(٥) ينظر: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم: ١٧٦.

placode)، وهي أول مكونات آلة السمع[١]، بينما يظهر الأخدود البصري(optic sulci) في أول الأسبوع الرابع من حياة الجنين في اليوم الثاني والعشرين[٢].

فيظهر في الأسبوع الرابع الكيس الغشائي لحلزون الأذن(cohlea Membraneous)،الذي ينمو طولياً ويلتف لفتين ونصف مكوناً الحلزون الكامل في الأسبوع الثامن، ثم تتم إحاطة الحلزون بغلاف غضروفي في الأسبوع الثامن عشر، وينمو هذا حتى يصل حجمه إلى الحجم الطبيعي له عند البالغين في نهاية الأسبوع الواحد والعشرين، عندما ينمو فيه(عضو كورتي) وهو حس السمع، وتظهر فيه الخلايا الشعرية الحسية التي تحاط بنهايات العصب السمعي.

وبذا تكون الأذن الداخلية قد نمت ونضجت لتصل إلى حجمها الطبيعي عند البالغين، وأصبحت جاهزة للقيام بوظيفة السمع المخصصة لها في الشهر الخامس من عمر الجنين[٣].

أمَّا العين فلا يتم تكامل طبقتها الشبكية الحساسة إلَّا بعد الأسبوع الخامس والعشرين[٤]،ولا تتعاطى ألياف العصب البصري بالطبقة النخاعية لتتمكن من نقل الإشارات العصبية البصرية بكفاءة إلَّا بعد عشرة أسابيع من ولادة الجنين، كما يبقى جفنا عيني الجنين مغلقين حتى الأسبوع السادس والعشرين من الحياة الجنينية[٥].

يتضح لنا مِمَّا تقدم ذكره أنَّ الأذن الداخلية للجنين تتضج وتصبح قادرة على السمع في الشهر الخامس ، بينما لا تفتح العين ولا تتطور طبقتها الحساسة للضوء إلَّا في الشهر السابع وحتى عند ذلك لن يكون العصب البصري مكتملاً لينقل الإشارات العصبية الضوئية بكفاءة، ولن تبصر العين لأنَّها غارقة في ظلمات ثلاث.

٢ــ السمع والبصر: لقد ثبت علمياً أنَّ الأذن الداخلية للجنين تتحسس للأصوات في الشهر الخامس، ويسمع الجنين أصوات حركات أمعاء وقلب أُمِّهِ، وتتولد نتيجة هذا السمع إشارات عصبية سمعية في الأذن الداخلية والعصب السمعي والمنطقة السمعية في المخ، ويمكن تسجيلها بالآت التسجيل المختبرية، وهذا برهان علمي يثبت سماع الجنين للأصوات في هذه المرحلة المبكرة، ولم تسجل مثل هذه الإشارات العصبية في الجهاز البصري للجنين إلَّا بعد ولادته[٦].

---

(١) ينظر: السمع والأبصار والأفئدة: ١.

(٢) ينظر: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم: ١٧٦.

(٣) ينظر: المصدر نفسه: ١٧٦.

(٤) ينظر: حاسة السمع في القرآن العزيز: ٥.

(٥) ينظر: حاسة السمع بين القرآن الكريم والعلم الحديث: ٦.

(٦) ينظر: خريطة المخ(بيئة علمية): ١٧٤.

٣ــ اكتمال حاستي السمع والبصر: يمكن للجنين أن يسمع الأصوات بالطريقة الطبيعية بعد بضعة أيام من ولادته بعد أن تمتص كل السوائل وفضلات الأنسجة المتبقية في أذنه الوسطى والمحيطة بعظيماتها، ثم يصبح السمع حاداً بعد ايام قلائل من ولادة الطفل(١).

أمَّا حاسة البصر فهي ضعيفة جداً عند الولادة إذ تكاد أن تكون معدومة، ويصعب على الوليد تمييز الضوء من الظلام، ولا يرى إلَّا صوراً مشوشة للمرئيات، وتتحرك عيناه من دون أن يتمكن من تركيز بصره وتثبيته على الجسم المنظور، ولكنه يبدأ في الشهر الثالث أو الرابع تمييز شكل أُمِّهِ أو قنينة حليبه و تتبع حركاتهما، وعند الشهر السادس يتمكن من تفريق وجوه أشخاص، إلَّا أنَّ الوليد في هذا السن يكون بعيد البصر، ثم يستمر بصره على النمو والتطور حتى السنة العاشرة من عمره(٢).

٤ــ تطور المناطق السمعية والبصرية والمخية: لقد ثبت الآن أنَّ المنطقة السمعية المخية تتطور وتتكامل وظائفها قبل مثيلتها البصرية، وقد أمكن تسجيل إشارات عصبية سمعية من المنطقة السمعية لقشرة المخ عند تنبيه الجنين بمنبه صوتي في بداية الشهر الجنيني الخامس، وتحفز الأصوات التي يسمعها الجنين خلال النصف الثاني من حياته الجنينية هذه المنطقة السمعية لتنمو تتطور وتتكامل عضوياً ووظائفياً، ومن الناحية الأخرى لا تنبه المنطقة البصرية للمخ في هذه المدة بأية منبهات، ولذلك فهي لا تتطور كثيراً ولا تنضج ولا تتكامل، فمن المعلوم فيزيولوجياً أنَّ المنبهات النوعية التي ترد أي طريق عصبي حسي تحفزه على النمو والنضج(٣)،وبهذه الطريقة يحفز الجهاز العصبي السمعي على النضوج منذ الشهر الخامس الجنيني، ولا يحفز الجهاز العصبي البصري يمثل ذلك إلَّا بعد ولادة الوليد.

ولهذه الأسباب يتعلم الطفل المعلومات الصوتية في أوائل حياته قبل تعلمه المعلومات البصرية، ويتعلمها ويحفظها أسرع بكثير من تعلمه المعلومات المرئية، فهو مثلاً يفهم الكلام الذي يسمعه ويدركه ويعيه أكثر من فهمه للرسوم والصور والكتابات التي يراها، ويحفظ الأناشيد والآيات بسرعة، ويتمكن من تعلم النطق في وقت مبكر جداً بالنسبة لتعلمه القراءة و الكتابة، وكل ذلك لأنَّ منطق دماغه السمعية نضجت قبل منطقة البصرية.

٥ــ تطور منطقة التفسير اللغوي في قشرة المخ: تنمو وتتطور منطقة التفسير اللغوي (Language Inter pretative Area) في قشرة المخ والتي تقع بالقرب من منطقة حس

(١) ينظر: القرآن وعلم النفس: ١١٩.

(٢) ينظر: المصدر نفسه: ١١٩.

(٣) ينظر: حاسة السمع بين القرآن الكريم والعلم الحديث: ٧.

السمع، وترتبط معها ارتباطاً أقرب و أوثق من ارتباطها مع منطقة حس البصر التي هي الاخرى تسهم في وظيفة الكلام والإدراك اللغوي عن طريق القراءة والكتابة(١).

إنَّ هذا التقارب بين هاتين المنطقتين ناتج عن حقيقة تطور منطقة حس السمع ووظائفه في وقت مبكر قبل نضوج منطقة البصر، يظهر لنا مِمَّا تقدم ذكره أنَّ:

١ـ جهاز السمع يتطور جنينياً قبل جهاز البصر ويتكامل وينضج حتى يصل حجمه في الشهر الخامس من حياة الجنين

الحجم الطبيعي له عند البالغين، بينما لا يتكامل نضوج العينين إلَّا عند السنة العاشرة من العمر.

٢ـ يبدأ الجنين بسماع الأصوات في رحم أُمِّهِ وهو في الشهر الخامس من حياته الجنينية، ولكنه لا يبصر النور والصور إلَّا بعد ولادته.

٣ـ تتطور وتنضج كل المناطق والطرق السمعية العصبية قبل تطور ونضوج مثيلاتها البصرية بمدة طويلة نسبياً.

بعد كل الذي تقدم من معطيات العلم الحديث نعود للآيات القرآنية حتى نوازن بينهما، قال تعالى:﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴾(السجدة: ٩)،ويقول تعالى:﴿ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحۡضُرُونِ ﴾(المؤمنون: ٩٨)،ويقول تعالى:﴿ وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴾(الأحقاف: ٢٦)، وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۙ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾(النحل: ٧٨)،وقال تعالى:﴿ قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۖ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴾ (الملك: ٢٣).

فكل هذه الآيات تشير إلى خلق ونشأة الإنسان، وفي كلها نلاحظ تقدم ذكر السمع على البصر، وهذا التقديم لم يكن صدفة عابرة من غير قصد، ولكنها إعجاز رباني لم يعرف إلَّا مؤخراً بعد ما توصل إليه العلم الحديث من معطيات علم التشريع والطب الحديث التي تثبت الإعجاز العلمي في هذه الآيات المباركات.

وإذا تأملنا الآيات التي ترافقت فيها كلمتا(السمع) و(البصر)في قوله تعالى:﴿ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا ﴾(مريم: ٤٢)،وقال تعالى:﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ

(١) ينظر: حاسة السمع بين القرآن الكريم والعلم الحديث: ٧.

وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ ﴾(هود: ٢٠)،وقال تعالى:﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ (الإسراء: ٣٦)، وقال تعالى ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ (الأنعام:٤٦)،نلاحظ أنّ القرآن الكريم يشير إلى وظيفتي السمع والبصر، ولأنَّ الوظيفة الأولى تطورت ونضجت قبل الثانية، ولأنَّ السمع أهم في التعلم والتعليم وأعمق رسوخاً في ذاكرة الطفل فقد قدَّمها جلَّ وعلا، وتبين الحقائق العمية السالفة الذكر الإعجاز العلمي في هذه الآيات. وفضلاً عن ما تقدم ذكره فإنَّ هناك نواحٍ أخرى تميز حس السمع على البصر، نذكر منها:

١ـ يتمكن الإنسان من سماع الأصوات التي تصل الى أذنيه من كل الاتجاهات والارتفاعات ، فيمكننا القول : إنَّ الساحة السمعية هي(٣٦٠)درجة بينما لو ثُبِّتَ الإنسان رأسه في موضع واحد فلن يتمكن من رؤية الأجسام إلَّا في ساحة بصرية محدودة تقارب(١٨٠)درجة في المستوى الأفقي و(١٤٥)درجة في الاتجاه العمودي، أمَّا ساحة إبصاره للألوان فهي أقلُّ من ذلك كثيراً، كما أنَّ أشعة الضوء تسير بخط مستقيم دائماً، فإذا اعترضها جسم غير شفاف فلن تتمكن من عبوره أو المرور حوله، ولكنَّ الموجات الصوتية تسير في كل الاتجاهات، ويمكنها أن تلف حول الزوايا وعبر الأجسام التي تصادفها، فهي تنتقل عبر السوائل والأجسام الصلبة بسهولة فيسمعها الأنسان حتى عبر الجدران(١).

٢ـ عند فقدان حس البصر تقوم المنطقة البصرية المخية بوظائف ارتباطية، فترتبط وظيفياً مع المناطق الارتباطية الدماغية الأخرى، فتزيد من قابلية الدماغ على حفظ المعلومات والذاكرة والذكاء، ولا تقوم المناطق السمعية بمثل هذا الارتباط عند فقدان حس السمع ولذلك فقد نبغ الكثيرون مِمَّن فقدوا حسَّ البصر، ولم ينبغ أحد مِمَّن فقد حس السمع إلَّا نادراً، مِمَّا يدل على أهمية حس السمع والمبالغة في تخصص مناطقه الدماغية(٢).

٣ـ ولا بُدَّ من الإشارة الى المحيط الأولي والمجتمع الذي نزل فيه القرآن الكريم، إذ إنَّه تميز بطبيعة سمعية أكثر منها بصرية، فليس هناك في الصحاري منبهات بصرية بقدر ما فيها من منبهات سمعية كما كان مجتمع ذلك العصر مجتمعاً سمعياً أكثر منه بصرياً، فالآيات القرآنية الكريمة كانت تسمع وتحفظ في الصدور، وتتناقل عن طريق الرواة، وعلى الرغم من أنَّ كُتَّاب الوحي كانوا يدونونها إلَّا أنَّ القرآن الكريم لم يعمم على الامصار إلَّا في زمن الخليفة

(١) ينظر: موسوعة الإعجاز العلمي، الإنسان من الميلاد إلى البعث في القرآن الكريم: ١٦٤/٥.

(٢) ينظر: السمع في القرآن الكريم (دراسة موضوعية): ١٤.

عثمان بن عفان(رضي الله عنه)،وبقيت الأحاديث النبوية الشريفة غير مدونة لوقت متأخر، ولعلَّ السبب في ذلك يعود الى قلة من كانوا يجيدون القراءة والكتابة، إذ قيل: إنَّ عددهم في مكة عند أول ظهور للإسلام لم يتجاوز بضعة أفرادٍ، كما أنَّ العرب لم يدونوا شعرهم الغزير حتى وقت متأخر، ولكنه كان يحفظ وترويه الرواة في الأسواق والمناسبات فيستمع الكلّ إليه(١).

إنَّ هذه الحقائق العلمية لم تكن معروفة قبل أربعة عشر قرناً، ولم يعرف الكثير منها إلَّا في العقود الأخيرة من هذا القرن، حتى إنَّ من العلماء من كانوا يرون أنَّ حس البصر أهم من حس السمع، ولكن الدراسات العلمية الحديثة كشفت الكثير من الحقائق الناصعة والتي تبين بكل وضوح وجلاء الاعجاز العلمي في الآيات البينات التي قدمت (السمع) على (البصر) لأسبقيته في الخلق والتطور العضوي والوظيفي، وللميزات الكثيرة لحس السمع على حس البص، وصدق الله العظيم القائل:﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾(فصلت: ٥٣).

(١) ينظر: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم: ١٨٢ــ١٨٣.

المبحث الثالث

الدلالات العلمية في تقديم البصر على السمع

ظهر لنا مِمَّا تقدم ذكره أنَّ السمع غالباً ما يأتي متقدماً على البصر، وذلك للاعتبارات التي تقدم ذكرها إلَّا أنَّ هذا التقديم لم يأتِ مطرداً في جميع آيات القران الكريم، إذ تقدم البصر على السمع، وذلك في ستة مواضع فقط، وهذه الآيات التي تقدم فيها البصر على السمع، الملاحظ فيها أنَّ هذا التقديم جاء في مواقف لا يؤدي السمع والبصر فيها دوراً معرفياً كما أنَّ آيات منها تتحدث عن يوم القيامة. وحتى تظهر لنا الحكمة جليةً في هذا التقديم الاستثنائي نقف عند هذه الآيات الكريمة بالدراسة، وهي:

١ـ قوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ (الأعراف: ١٧٩)، فالموقف هنا موقف استهزاء بالكفار حيث المساواة بينهم وبين الحيوانات غير العاقلة التي لا يؤدي السمع والبصر عندها الدور المعرفي الذي ينتج عنه الهدى بل إنَّ البصر بالنسبة إلى الحيوانات أهم من السمع الذي لا يعدو أن يكون وسيلة لحفظ الحياة[١]،والملاحظ في هذه الآية الكريمة أنَّ الله تعالى قصد الاستهزاء بهم وأول درجات هذا الاستهزاء واضح جداً ويؤكده قوله تعالى في الآية نفسها:﴿ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ (الأعراف: ١٧٩).

٢ـ قال تعالى:﴿ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (هود: ٢٤)،والمثل في هذه الآية يقصد به الحديث عن تعطيل حاستي السمع والبصر، فعند تعطيل هاتين الحاستين يتقدم البصر على السمع، فالآية الكريمة تتحدث عن هذا التعطيل للحاستين وفي مجال التعطيل نتأكد من أهمية السمع وتقدمه على البصر، فالأفضل من أجل مصلحة الإنسان أن يتعطل بصره ولا يتعطل سمعه إذا كان لابُدَّ أن يفقد أحدهما، وعلى ضوء ذلك يمكننا فهم السر في التقديم اللفظي لحاسة البصر المعطلة(العمى)على حاسة السمع المعطلة(الصمم)[٢].

٣ـ قال تعالى:﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾(السجدة: ١٢)،والحديث في هذه الآية المباركة عن الآخرة لا في الدنيا وهناك لا يؤدي السمع أو البصر دوراً معرفياً ولزوم البصر هناك أكثر من لزوم السمع،

---

(١) ينظر: تفسير السعدي: ٣٠٩.

(٢) ينظر: في ظلال القرآن: ٥٣٤/٤.

إذ الآية تصور لنا مشهداً من مشاهد يوم القيامة وليس في الحياة الدنيا ولا شكَّ أنَّ في الآخرة الأبصار أقوى إذ هناك دار جزاء[1].

٤ـ قال تعالى:﴿ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴾(الأعراف: ١٩٥)،والحديث في الآية المباركة ليس عن البشر بل عن الاصنام التي كان يعبدها المشركون، أي: أنَّ الحديث هنا ليس في مجال المعرفة والفهم والإدراك[2].

٥ـ قال تعالى:﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا ﴾(الإسراء: ٩٧)، ومشهد الحشر هذا في الآخرة لا في الدنيا حيث لا يؤدي السمع والبصر دوراً معرفياً كذلك.

ـ قال تعالى :﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُواْ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾،(الكهف: ٢٦)،قال الطبري في تفسير الآية الكريمة:((أبصر بالله واسمع، وذلك بمعنى البالغة في المدح، كأنَّه قيل ما أبصره واسمعه، وتأويل الكلام: ما أبصر الله لكل موجود، واسمعه لكل مسموع لا يخفى عليه من ذلك شيء))[3]،إذاً البصر قُدِّمَ على السمع في هذه الآية الكريمة كذلك للاعتبارات التي ذكرها في تفسيرها.

وكذلك وقع التقديم في قوله تعالى:﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ ﴾(المائدة: ٤٥).

ويمكن القول تعقيباً على ما تقدم ذكره: إذا كان السمع يتقدم البصر في الآيات السابقة، فإنّ العين تتقدم الأذن في هذه الآيات، فلو كان التقديم للتشريف فقط لتقدمت الأذن على العين كما تقدم السمع على البصر؛ لأنَّ الأذن أداة السمع والعين أداة البصر، فقد وجد علماء الطب والتشريح المحدثون أنَّ مراكز السمع داخل المخ البشري يقع في الفص الصدغي للمخ بينما يقع مركز الإبصار في الفص المؤخر في آخر المخ، أي: أنَّ مراكز السمع تتقدم على مراكز الأبصار(ينظر: شكل ١و٢)،بعكس الأعضاء حيث تتقدم العين على الأذن في صنعة الله الظاهرة ، فالآيات القرآنية تفصل بين الأعضاء(العين والأذن)، وبين القوى المدركة(السمع

(١) ينظر: تفسير السعدي: ٦٥٤.

(٢) ينظر: في ظلال القرآن: ٦٨٤/٣.

(٣) جامع البيان: ٢٣٣/١٥.

والبصر)، وفي صنعة الله ما يطابق ذلك، فهناك أعضاء حس لاستقبال المؤثرات الحسية، وهناك مراكز داخل المخ البشري تتم فيها عملية الإدراك والفهم لهذه المؤثرات الحسية، وأيضاً من ناحية الترتيب نجد أنَّ الحق سبحانه وتعالى رتب في الآيات: العين قبل الأذن، والسمع قبل البصر، في غالب القرآن الكريم، وها هو العلم اليقيني قد أثبت أنَّه بينما تتقدم العين الأذن في رأس الإنسان، فإنَّنَا نجد عكس ذلك الترتيب بالنسبة للمراكز، فمركز السمع يتقدم مركز الإبصار في قشرة المخ البشري[١]،إذاً طابق كلام الله تعالى صنعة الله [٢].

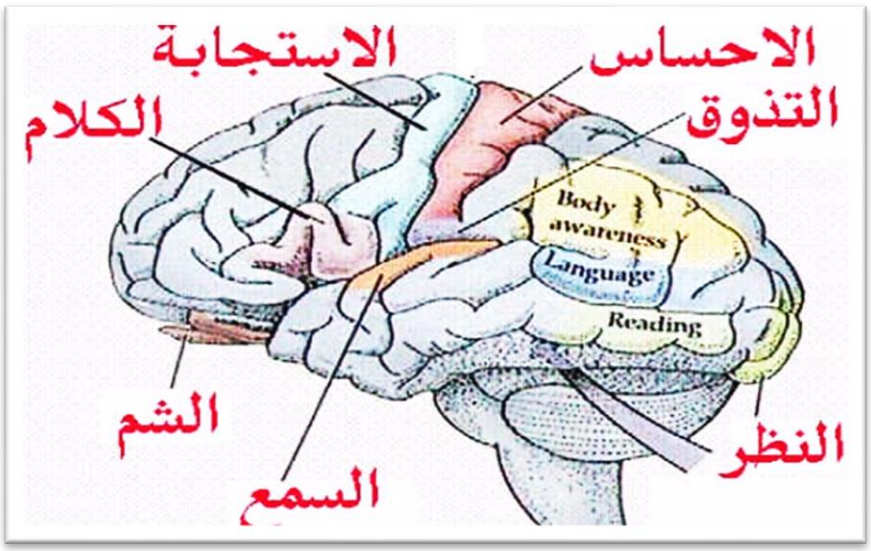

الشكل (١) يظهر فيه تقدم مراكز السمع على مراكز الأبصار

(١) ينظر: السمع في القرآن الكريم(دراسة موضوعية): ١٥.

(٢) ينظر: السمع والبصر: ٥١ .

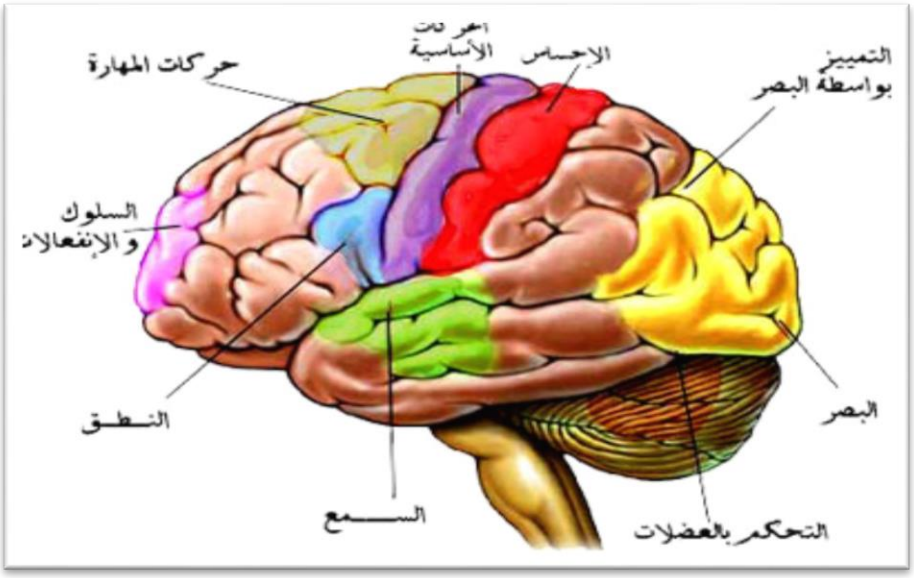

الشكل (٢) يظهر فيه تقدم مراكز السمع على مراكز الأبصار

المبحث الرابع

الإعجاز في افراد السمع وجمع الأبصار

يلحظ الذين يتلون كتاب الله، ويتدبرون آياته، أنَّ السمع والبصر في الآيات القرآنية التي قرن الله تعالى فيها بين السمع والبصر جاء السمع مفرداً بينما تذكر الأبصار بصيغة الجمع، وهذا مضطرد في جميع هذه الآيات باستثناء آية واحدة.

وما كان القرآن ليجمع بينهما على هذا النحو من الفرقة والتمييز مع توافق الكلمتين في الدلالة على المصدر، وتقابلهما في الذكر إلَّا لناشئة من حكمة، أو داعية من سر، ولم يفت المفسرين أن يلحظوا هذا الخلاف، ويبتغون الوسيلة إلى سره ومأتاه.

وقد أشار بعض المفسرين الى هذا الموضوع وذكروا له أسباباً مختلفة، فقال الرازي:((إنَّمَا جمع القلوب والأبصار ووحد السمع لوجوه، أحدها: أنَّه وحَّدَ السمع لأنَّ لكل واحد منهم سمعاً واحداً، كما يقال: أتاني برأس الكبشين، يعني رأس كل واحد منهما، كما وحد البطن في قوله:(كلوا في بعض بطنكموا تعفوا)، يفعلون ذلك إذا أمنوا اللبس، فإذا لم يؤمن كقولك: فرسهم وثوبهم وأنت تريد الجمع منعوه، الثاني: أنَّ السمع مصدر في أصله، والمصادر لاتجمع يقال: رجلان صوم، ورجال صوم، فروعي الأصل، يدل على ذلك جمع الأذن في قوله:(وفي آذانهم وقراً)، والثالث: نقدره مضافاً محذوفاً، أي: وعلى حواس سمعهم، الرابع: قال سيبويه: إنَّه وحَّد السمع إلَّا أنَّه ذكر ما قبله وما بعده بلفظ الجمع وذلك يدل على أنَّ المراد منه الجمع أيضاً))[١].

أمَّا الألوسي فلم يرتضِ هذا التعليل، فقال:((والقول بأنَّ وحَّده– أي: السمع – للأمن من اللبس ولأنَّه في الأصل مصدر والمصادر لا تجمع، ليس بشيء...وأدنى من هذا عندي تقدير مضاف مثل: وحواس سمعهم))[٢]،ورأى أنَّ إفراد السمع والأبصار للاختصار والتفنن مع الإشارة إلى نكتة، وهي: أنَّ مدركاته نوع واحد، ومدركات الأبصار مختلفة، وكثيراً ما يعد البلغاء مثل ذلك، وقيل: إنَّ وحدة اللفظ تدل وحدة مسماه – وهو الحاسة – ووحدتها تدل على قلة مدركاتها[٣].

وتبع الأستاذ محمد رشيد رضا الألوسي فيما ذهب إليه من أنَّ كون السمع مصدراً ليس سبباً لإفراده؛ لأنَّ البصر أيضاً مصدر ومع ذلك جاء مجموعاً، ورأى أنَّ سبب إفراد السمع هو قلة مدركاته بخلاف الأبصار؛ لأنَّ أنواع المبصرات كثيرة فتعطي للعقول مواد كثيرة، والسمع لا يدرك إلَّا بالصوت، وليس في الكلام عند النقل طريق من العلم اليقيني إلَّا التواتر بخلاف ما

---

(١) مفاتيح الغيب: ١/ ٥٩.

(٢) روح المعاني: ١/١٣٥.

(٣) المصدر نفسه: ١/١٣٥.

تقطع فيه بالضرورة من طريق العقل والبصر، فالأولويات كالحكم بأنَّ الجزء أصغر من الكل، وأنَّ النقيضين لا يجتمعان ولا يرتفعان، والقضايا التي قياسها معها من المعقولات المحضة والتجريبيات والحدسيات يشترك فيها العقل والبصر، والقسم الأعظم من المشاهدات سبيل الإدراك فيه البصر، فالعقول والأبصار بمنزلة ينابيع كثيرة ينبجس من كل منها عيون للعلم مختلفة بخلاف السمع فإنّه ينبوع واحد ولا اختلاف فيما يصدر عنه، فالحاصل أنَّ العقول والأبصار تتصرف في مدركات كثيرة فجمعت، وأمَّا السمع فلا يدرك إلَّا شيئاً واحدا فأفرد[1].

وذكر ابن عاشور إلى لطيفة أخرى في إفراد السمع وجمع الأبصار، وهي: أنّ الأبصار متفاوتة التعلق بالمرئيات التي فيها دلائل الوحدانية في الأفاق وفي الأنفس التي فيها دلائله، فلكل بصر حظه من الالتفات إلى الآيات المعجزات والعبر والمواعظ، فلَمَّا اختلفت أنواع ما يتعلق به البصر جمع، أمَّا السماع فإنَّمَا تتعلق بسماع ما يلقي إليها من القرآن، فالجماعات إذا سمعوا القرآن سمعوه متساوياً، وإنَّمَا يتفاوتون في تدبره، والتدبر من عمل العقول، فلَمَّا اتحد تعلقهما بالمسموعات جعله سمعاً واحداً[2].

أمَّا الآية الوحيدة التي أفرد فيها البصر فهي في قوله تعالى:﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾(الإسراء: ٣٦)،والحكمة في إفراد البصر هنا واضحة، إذ الكلام في الآية الكريمة عن المسؤولية الذاتية، فكل إنسان مسؤول عن سمعه وبصره وفؤاده، وليس مسؤولاً عن سمع الآخرين وأبصارهم وأفئدتهم[3].

وقد تناول علماء الطب والتشريح دراسة السبب في إفراد القرآن الكريم حاسة السمع، وجمع حاسة البصر(الأبصار)، وأرجعوا ذلك إلى أنَّ حاسة السمع تعمل كمنظومة واحدة في الإنسان، إذ إنَّ المركز السمعي الدماغي في الفص الصدغي يغذي في كل جهة، يغذي كلتا الأذنين بمعنى أنَّ كل أذن تستلم وتورد الإيعازات السمعية إلى كلتا الجهتين فإذا تعطل المركز السمعي في أحد الجهتين فإنَّ الجهة الأخرى تغذي الأذن التي حصل فيها العطب مركزيا.

أمَّا بالنسبة للمراكز البصرية فهي متعددة وتبلغ أكثر من أربعين مساحة بصرية دماغية في مؤخرة المخ(الفص القفوي)وتعمل كل منها بصورة مستقلة لتؤدي وظيفة معينة في حاسة البصر وتتغذى بألياف أعصاب بصرية مستقلة تنتشر في عمق الدماغ من مقلة العين في الإمام إلى مؤخرة الدماغ مروراً بالفصين الصدغي والجداري كما يتمثل كل نصفي العين الواحدة على جهة الدماغ المعاكسة لها ، فإذا ما أصيب الدماغ بمرض في أحد نصفيه فإنَّ

(١) ينظر: مفاتيح الغيب: ١٤٤/١– ١٤٥.

(٢) التحرير والتنوير: ٢٤٢/١.

(٣) روح المعاني: ٧٤/١٥.

المصاب يفقد البصر في نصفي عينيه المعاكستين لجهة الإصابة وفضلاً عن أنَّ الشخص الذي يتحدث مع شخص آخر ويحصل هناك كلام جانبي فإنَّه لا يسمعه ولايستوعبه، بينما الناظر الى شيء معين ضمن ساحته البصرية فإنَّه يستطيع أن يرى عدة أشياء أو مناظر ثابتة أو متحركة في الوقت نفسه من أجل ذلك فقد أفرد القرآن الكريم حاسة(السمع)، وجمع حاسة البصر(الأبصار)[١].

(١) ينظر: السمع والأبصار والأفئدة: ٧-٨.

الخاتمـــة

وقد توصل البحث إلى نتائج يمكن أن نذكرها على النحو الآتي:

١ـ إنَّ القرآن الكريم يدعو العقل الإنساني إلى سلوك مناهج الاستكشاف العلمي والاستدلال العقلي لمعرفة الحقائق التي جاء بها تبليغاً وترشيداً.

٢ـ إنَّ إعجاز الآية القرآنية هذا يعد دليلاً علمياً على صدق الرسالة وصدق الرسول (ﷺ)، وسيكون دليلاً يقينياً على أنَّ القرآن الكريم كتاب الله المعجز الوحيد الخالد الباقي المحفوظ ليدين به الجميع وليكون دستوراً للعالمين لمن شاء منهم أن يستقيم.

٣ـ إنَّ الاكتشافات العلمية ما دامت قد ارتقت إلى مستوى الحقيقة فإنَّها تعطي للآيات القرآنية التي تتعرض لها أبعاداً ما تزال تتعمق وتتسع على مدى تلك الاكتشافات حتى تصل بالعقل إلى درجة اليقين وذلك ما تعبر عنه الآية الكريمة:﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (فصلت: ٥٣).

٤ـ وقف العلماء قديماً وحديثاً في سر تقديم السمع على البصر لإدراكهم أنّه من مقصود الشارع ولم يكن عبثاً و أوضحوا الحكمة منه، وأيضاً تقديم البصر في ستة آيات على السمع، وعللوا هذا التقديم وما فيه من إعجاز قرآني.

٥ـ ما اجتمعت كلمتا السمع والأبصار في القران إلَّا وتقدمت كلمة السمع على كلمة الأبصار؛ لأنَّ حاسة السمع أهم بالنسبة إلى الإنسان من حاسة البصر في تنمية القدرات العقلية، ولأنَّ حاسة السمع تظهر في الجنين وتبدأ بالعمل قبل حاسة البصر، إذ تبدأ خلايا السمع الأولية بالظهور في الجنين منذ الأسبوع الثالث من حياته، وبالعمل في الشهر الخامس(قبل ولادته بأربعة أشهر)، أمَّا خلايا حاسة البصر فتبدأ بالظهور منذ الأسبوع الرابع من حياة الجنين، وتبدأ بالعمل منذ الشهر الثالث بعد الولادة.

٦ـ لقد ذكر القرآن الكريم ترتيب حاستي (السمع والبصر) بصورة مطابقة لمواقعها التشريحية في الدماغ وكذلك من ناحية بدء وظيفتها وعملها.

٧ـ القرآن يفصل بين أداة الحس(العين والأذن)،وقوة الإدراك(السمع والبصر) فالعين والأذن تشير إلى الأعضاء الحسية، أمَّا السمع والبصر فإنّهما يشيران إلى معانٍ حول العقل والتدبر أو الإدراك العاقل.

٨ـ إنَّ هذه الحقائق العلمية الناصعة تبين بكل وضوح وجلاء الإعجاز العلمي في الآيات البينات التي قدمت السمع على البصر؛ لأسبقيته في الخلق والتطور العضوي والوظيفي، وللمميزات الكثيرة لحس السمع على حس البصر، ولتركيبه التشريحي وتقدم مركز السمع على مركز البصر في الدماغ.

ثبت المصادر

- الإعجاز في نص الخطاب القرآني، بحث مقدم إلى مؤتمر النص بين التحليل والتأويل والتلقي (المنعقد ٤-٦ أبريل ٢٠٠٦م)، تأليف: الدكتور عصام العبد زهد، الأستاذ المشارك في التفسير وعلوم القرآن الجامعة الإسلامية – كلية أصول الدين، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.
- إعجاز القرآن الكريم للدكتور فضل حسن عباس، ط (١٩٩١م)، عمان .
- البرهان في علوم القرآن: للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي(ت٧٩٤هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة- مصر، ١٣٧٦هـ/١٩٥٧م.
- البيان في اعجاز القرآن: د.صلاح عبدالفتاح الخالدي، مكتبة دار عمار، عمان ــ الاردن، ١٩٨٩م.
- التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس.
- تفسير مفردات ألفاظ القرآن الكريم: سميح عاطف الزين، دار الكتاب اللبناني بيروت ــ لبنان.
- تفسير المنار: لمحمد رشيد رضا، ط ٢، دار المعرفة، بيروت – لبنان.
- التفسير القيم: لمحمد بن أبي بكر بن القيم الجوزية(ت٧٥١ هـ)،تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان ، ١٩٧٨م.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: للعلامة الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلّا اللويحق، ط ١، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠ م.
- الجامع لأحكام القرآن: لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي(ت٦٧١ هـ)، تحقيق: د. محمد إبراهيم الحفناوي، ود. محمود حامد عثمان، دار الحديث، القاهرة – مصر،١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.
- جامع البيان في تأويل آي القرآن: لمحمد بن جرير الطبري(ت٣١٠ هـ)، ط١، دار الكتب العلمية ، بيروت ــ لبنان، ١٩٩٢م.
- حاسة السمع بين القران الكريم والعلم الحديث: د. محمود محمد شورى، بحث مقدم إلى المؤتمر العلمي السابع للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة.
- حاسة السمع في القرآن العزيز: عبد القادر شحرور، مقال منشور في موقع صيد الفوائد.

- خريطة المخ(بيئة علمية): د محمد دودح، بحث منشور ضمن كتاب(بحوث المؤتمر العلمي العاشر للإعجاز العلمي في القرآن والسنة)، ١٤٣٣هـ-٢٠١١م، ج٢، الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة.
- الدليل المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: دكتور حسين محمد فهمي الشافعي، ط٣، دار السلام، القاهرة ـ مصر، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٨م.
- روح المعاني في تفسير القران العظيم والسبع المثاني: محمود شكري الآلوسي (ت١٢٧٠هـ)، دار إحياء التراث، بيروت – لبنان.
- السمع في القرآن الكريم(دراسة موضوعية): أ. د. عبد الله بن عبد الرحمن الخطيب، المجلة العالمية لبحوث القرآن، المجلد ٢، العدد٢، ٢٠١٢م.
- السمع والأبصار والأفئدة(دراسة قرآنية طبية)الدكتور: محمد جميل الحبال، طبيب في مستشفى الملك فهد التخصصي، المملكة العربية السعودية، بحث منشور في شبكات المعلومات الدولية.
- السمع والبصر: د حسين رضوان سليمان اللبيدي، بحث منشور في شبكة المعلومات الدولية.
- في ظلال القرآن: سيد قطب، ط٧، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ١٩٧١م.
- القرآن وعلم النفس: د. نجاتي، دار الشروق، القاهرة – مصر،١٩٨٢م.
- لسان العرب: للإمام جمال الدين أبي الفضل محمد مكرم ابن منظور الإفريقي (ت٧١١هـ)، تحقيق: عامر أحمد حيدر، راجعه: عبد المنعم خليل إبراهيم، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، ٢٠٠٣ م– ١٤٢٤هـ .
- مباحث في علوم القرآن: مناع القطان، ط٣، مؤسسة الرسالة، بيروت ــ لبنان.
- معاني القرآن وإعرابه: لأبي إسحاق ابراهيم بن السري الزجاج(ت٣١١هـ)، تحقيق: د. عبد الجليل عبده شلبي، دار الحديث، القاهرة ، مصر، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٤م.
- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث، القاهرة– مصر، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م.
- مفتاح السعادة: لمحمد بن أبي بكر بن القيم الجوزية(ت٧٥١هـ)،دار نجد للطباعة، المملكة العربية السعودية، ١٤٠٢هـ.
- مفاتيح الغيب(التفسير الكبير): لمحمد بن عمر بن حسين الفخر الرازي(ت٦٠٦ هـ)، ط٣، دار الفكر، بيروت – لبنان، ١٩٨٣م.
- مفردات ألفاظ القرآن: للعلامة الراغب الأصفهاني(ت٤٢٥هـ)،تحقيق: صفوان عدنان داوودي، ط٤ ، دار القلم، دمشق – سوريا، ١٤٣٠هـ – ٢٠٠٩م.

- موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم والسنة المطهرة: يوسف الحاج أحمد، دار ابن حجر، دمشق – سوريا، ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م.
- موسوعة الإعجاز العلمي(الإنسان من الميلاد إلى البعث في القرآن الكريم): د. زغلول النجار، دار المعرفة، بيروت- لبنان ، ١٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.
- النبأ العظيم: الدكتور محمد عبد الله دراز، دار القلم، دمشق ـ سورية،١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.